مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Planning and Studies

العراق: هل تعيد زيارة أردوغان المرتقبة تشكيل العلاقات بين بغداد وأنقرة

فراس إلياس

سلسلة إصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌّ، غيرُ ربحيّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حولَ قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عمليَّة جليَّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبِّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنَّما تعبِّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2024

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org

Since 2014

العراق: هل تعيد زيارة أردوغان المرتقبة تشكيل العلاقات بين بغداد وأنقرة

فراس إلياس*

تأتي الزيارة المرتقبة للرئيس التركي رجب طيب أردوغان للعراق، والمتوقع القيام بها في نهاية شهر نيسان/أبريل الجاري، لتمثل محطة مهمة من محطات العلاقة بين العراق وتركيا، فهي الأولى له كرئيس للجمهورية، والثانية بعد أن كان رئيساً للوزراء، إذ أظهرت السياسة الخارجية التركية في الفترة الماضية اهتماما ملحوظاً بالعراق، لأسباب سياسية واقتصادية وأمنية، وهو اهتمام ترجمته طبيعة الأدوار التركية في العراق، ما يُثير بدوره العديد من التساؤلات حول طبيعة الدور التركي المرتقب، وكيف سترسم تركيا مسارات دورها فيه، وشكل القضايا التي ستتفاعل معها، والأهم من كل ذلك النهج الاستراتيجي الذي سيتعامل به أردوغان مع الملف العراقي.

إن الحديث عن دور تركي جديد بالعراق، يمثل السؤال الأهم في مرحلة ما بعد زيارة أردوغان، وذلك نظراً للتحولات المستمرة التي مر بها الدور التركي بالعراق بعد عام 2003، إذ تنافست على إدارة الملف العراقي العديد من المؤسسات التركية، وأهمها وزارة الخارجية والاستخبارات، وبعد تحول النظام السياسي في تركيا من برلماني إلى رئاسي في نيسان/أبريل 2017، أصبحت مؤسسة الرئاسة هي المتحكم الرئيس بالملف العراقي، والآن مع ولاية أردوغان الثانية، والمجيء بشخصيات تتطابق أيديولوجياً وفكرياً معه، عبر تعيين هاكان فيدان على رأس الخارجية، وإبراهيم كان على رأس المخابرات، يمكن القول بأننا أمام حالة تكامل أيديولوجي وسياسي تركي موجه نحو العراق.

دور تركي جديد

إن الزيارة المرتقبة لأردوغان يتوقع أن تكون لها تداعيات مباشرة على الداخل العراقي، إذ يُعطي تعيين رئيس المخابرات السابق هاكان فيدان، وزيراً للخارجية، بعض المؤشرات على طبيعة النهج الذي ستتبناه أنقرة بالفترة المقبلة، ففي السنوات التي قاد فيها المخابرات، أشرف فيدان على قنوات التواصل الخلفية (الأكثر حساسية) مع مختلف الفاعلين الإقليميين والدوليين، كما لعب دوراً بارزاً في صياغة الجوانب الأمنية والاستخباراتية وترتيب المصالحات مع الخصوم، علاوة على

*باحث.

ذلك، كان له دور بارز في الصراع التركي مع «حزب العمال الكردستاني – PKK». إذ تمكن عبر تطوير القدرات الاستخبارية للاستخبارات التركية من ملاحقة واستهداف العديد من قيادات الحزب والفصائل الإيزيدية المتحالفة معه في شمال العراق، وتحديداً سنجار.

مما لا شك فيه أن الدور التركي في العراق، سيكون خاضعاً لمراجعة شاملة من قبل أردوغان، وتحديداً على مستوى الأولويات والقضايا، إذ قد يطمح أردوغان إلى الاستمرار بـ»السياسة الخارجية المركبة» حيال أربيل وبغداد، لما توفره هذه السياسة من هامش مناورة مريح لأنقرة في الداخل العراقي، إلى جانب إعطاء ملف الوجود العسكري و»حزب العمال الكردستاني» أهمية كبرى، فضلاً عن الإبقاء على قضايا المياه والطاقة، كقضايا مركزية في الرؤية التركية حيال العراق، خصوصاً وأن تركيا بلورة سياسة «فوق وطنية» عند مناقشة هذه القضايا مع العراق.

إن إنتاج رؤية جديدة لتركيا في العراق، سيكون التحدي الأبرز أمام أردوغان، خصوصاً في موضوعة الموازنة بين الأدوار السياسية والضرورات الأمنية والمصالح الاقتصادية والعمليات العسكرية، فنظراً للواقع الاقتصادي الصعب الذي تعيشه تركيا، ستحاول تركيا توسيع شبكة علاقاتها الاقتصادية مع العراق، ولعل دعمها لمشروع «طريق التنمية»، يأتي في هذا السياق، عبر هذا المشروع تطمح تركيا إلى توسيع انتشارها الاقتصادي داخل العراق، إلى جانب سهولة الوصول إلى الأسواق في دول الخليج، كما أن هذا الطريق سيوفر لتركيا فرصة تحويل مناطق الصراع مع «حزب العمال الكردستاني» والفصائل في شمال العراق، إلى مناطق للتشابك الاقتصادي، وهو هدف إستراتيجي تسعى من خلالها تركيا أيضاً إلى تحييد النفوذ والتأثير الإيراني، وتحديداً محافظة نينوى، عبر المنطقة العازلة التي تروج لها حالياً.

معضلة إقليم كردستان

يمثل إقليم كردستان الحزام الجنوبي الأهم في إستراتيجية الأمن القومي التركي، وتؤثر التفاعلات فيه بشكل مباشر على الداخل التركي، ويحكم التوجه التركي في المرحلة الحالية ثلاث متغيرات صعبة وأساسية، وهي تطويق مشكلة سنجار والحد من تهديدها لأربيل وتركيا، من خلال الحد من انتشار «حزب العمال الكردستاني»، والثاني الحفاظ على مكانة أربيل في السياسة العراقية، والثالث احتواء الخلاف الكردي– الكردي بين السليمانية وأربيل.

إذ تتعرض أربيل لضغوط عالية تستهدف تحجيم دورها في السياسة العراقية، وترجيح كفة السليمانية في العلاقة المتفاعلة بين بغداد وأربيل، خصوصاً مع القرارات غير المسبوقة للمحكمة الاتحادية حيال إقليم كردستان، والتي سيكون لها آثار واضحة على دور الإقليم وحجمه في المرحلة المقبلة، فهي كلها قرارات تصب في النهاية في تحجيم دور أربيل في السياسة العراقية، وتضييق دورها وإفراغ علاقاتها الخارجية، لا سيما في مجال النفط وتصديره، وهذا بدوره ينعكس على التوازن الذي تتبعه أنقرة بين بغداد وأربيل.

لذلك ستنطلق الأولوية الإستراتيجية لأردوغان عبر الزيارة المرتقبة في تحقيق التوازن بين أربيل وبغداد، خصوصاً وأن تأخر مثل هذه الخطوة ستعرض الدور التركي في العراق لأزمات حقيقية.

توسيع الزخم الاقتصادي

يعتمد مشروع «طريق التنمية» بشكل أساسي على التعاون العراقي مع تركيا، لأن تركيا ستُمثِّل نقطة الربط مع أوروبا، وهو ما يستدعي مستوى عالياً من التنسيق بين البلدين، بما يشمل ربط شبكتي الطرق والسكك الحديدية بينهما، والاتفاق على معايير موحدة في تنظيمها، وكان رئيس الوزراء العراقي محمد شياع السوداني قد ناقش الفكرة مع أردوغان في زيارته إلى تركيا في آذار/ مارس 2023، إلى جانب المناقشات الحالية بين مسؤولي البلدين عبر الزيارات المتبادلة، وبحسب المسؤولين العراقيين، فإن تركيا تدعم المشروع، وتقوم بالتنسيق المكثف بشأنه مع الجانب العراقي. مع ذلك، لا يتوقع أن تكيف تركيا أولوياتها مع الحاجة العراقية، وقد تكون لها اشتراطات أخرى تتعلق بالتهديد الأمني الذي يمثله «حزب العمال الكردستاني»، ورغبة اقتصادية لتعزيز الصادرات التركية إلى العراق، وهو هدف إستراتيجي ستطمح تركيا لربطه مع أي تحرك عراقي لتطبيق هذا المشروع مستقبلاً.

التوازن الهش مع إيران

إن الدور الاستراتيجي الذي تلعبه إيران في محافظة نينوى، دفع بها إلى إيلاء قضاء سنجار قيمة أمنية كبيرة، والتدخل في صياغة خطط انتشار الفصائل هناك، وتنسيقها مع الأدوار التي يلعبها كل من «حزب العمال الكردستاني»، من أجل وضع اليد على الحزام الجغرافي الذي يربط محافظة نينوى بمناطق تلعفر وسنجار والحدود السورية، والتحرك بحرية أكبر بمواجهة التزاحم التركي، مما عزز

من القيمة الإستراتيجية لهذه المناطق في المنظور الأمني الإيراني.

تمكنت إيران وعبر علاقاتها الوثيقة مع «حزب العمال الكردستاني»، التحول نحو إستراتيجية أكثر تخصصية في شمال العراق، عبر دعم وتهيئة وتنظيم وحدات مقاومة سنجار «YBŞ» التي شكلها الحزب، ولم يتوقف الدور الإيراني على العميد ريبر أدائي مسؤول ملف «حزب العمال الكردستاني» في قوة القدس الإيرانية، وإنما أشرفت استخبارات الحرس الثوري على دعم هذه الوحدات مادياً ولوجستياً، حيث بدأت بزيارات متكررة إلى سنجار منذ نهاية عام 2016، وذلك عبر التنسيق مع الفصائل الصديقة التي تتواجد في القضاء، ولم يقتصر دورها الإشراف على سنجار فحسب، وإنما يتمثل دورها أيضاً في تأمين الطريق البري الرابط بين سنجار وربيعة باتجاه الحدود السورية، حيث تنتشر قوات «حزب العمال الكردستاني» والفصائل الأخرى، وذلك لتأمين عمليات نقل المقاتلين والأسلحة إلى سوريا، فضلاً عن تأمين عمليات تجارة المخدرات والتهريب والتجارة العابرة للحدود، عبر مناطق سنجار والإدارة الذاتية الكردية شمال شرق سوريا، نحو تركيا وأوروبا، وتعد عمليات في غاية الأهمية، في الوقت الذي تخضع فيه لعقوبات أمريكية مشددة، كما أنها أفرغت الإجراءات العسكرية التركية من فعاليتها، وهي معضلة يتوقع أن تستمر تركيا بمواجهتها في المرحلة المقبلة.

السعي لتشكيل منطقة عازلة

مما لا شك فيه أن السعي التركي لإقامة منطقة عازلة داخل الأراضي العراقي، يعكس إدراكاً تركياً لتلكؤ العراق في معالجة ملف «حزب العمال الكردستاني»، فعلى الرغم من عديد العمليات العسكرية التي نفذتها تركيا في الفترة الماضية، إلاّ أن هذه العمليات لم تنجح بكبح نشاط «حزب العمال الكردستاني»، إذ لا زال الحزب يحتفظ ببنيته التحتية العسكرية، ويمتلك هامش حركة مؤثرة، ويرتبط بتحالفات إقليمية عابرة للحدود، وهي مسارات زادت من العقدة التركية في هذا السياق.

يشمل مشروع المنطقة العازلة التي تطمح تركيا لإقامتها على أغلب الشريط الجغرافي الذي يربطها بالعراق، والذي يمتد من جبال هاكورك على المثلث العراقي التركي الإيراني حتى مدينة ديروك على المثلث العراقي التركي السوري، أما في العمق، فهو يشمل جبال غارا وأفشين وباسين، حتى شمال دهوك، وتتركز أهمية المنطقة العازلة على جبل غارا تحديداً، إذ يمثل هذا الجبل مقر عمليات

«حزب العمال الكردستاني»، وقاعدة لتخزين السلاح، فضلاً عن كونه نقطة إستراتيجية تربط الاتحاد الوطني الكردستاني بقوات سوريا الديمقراطية «قسد»، وهو ما تحاول تركيا تجاوزه عبر زيارة أردوغان المرتقبة.

وما يدلل على الخشية التركية في هذا السياق، التصريحات التي أدلى بها وزير الخارجية التركي هاكان فيدان نهاية الشهر الماضي، والتي طالب فيها الاتحاد الوطني الكردستاني بمراجعة علاقاته مع «حزب العمال الكردستاني»، وأكد على إن تركيا تنظر باهتمام بالغ لتطوير العلاقات مع السليمانية، وأنها لن تقف مكتوفة الأيدي إزاء هذه العلاقة التي تهدد الأمن القومي التركي.

وعلى الرغم من الانتشار العسكري التركي في شمال العراق، وتحديداً في المناطق التي تطمح تركيا شمولها بمشروع المنطقة العازلة، إلاّ أن مثل هذا الانتشار قد لا يعطيها فرصة النجاح في تحقيق هذا المشروع، وذلك نظراً للجغرافيا المعقدة في شمال العراق، والتي تختلف كلياً عن الجغرافيا في شمال سوريا، والتي سمحت لتركيا بتشكيل مثل هذه المنطقة، فضلاً عن ذلك فإن «حزب العمال الكردستاني» يمتلك خبرة التحرك في شمال العراق، ولديه علاقات واسعة مع هناك، وتحديداً العشائر الكردية المتحالفة معه، ما يجعل هذا المشروع يواجه صعوبات كبيرة في النجاح.

خاتمة

إجمالاً، سيسعى أردوغان إلى صياغة نهج جديد في العراق، مع الحفاظ على أولويات تركيا السياسية والاقتصادية والأمنية والعسكرية، كما سيسعى لرسم خارطة طريق جديدة في العراق، بذات الشكل الذي كان يمارسه في السابق، مع إعطاء الواقعية السياسية هامشاً واضحاً في نهجه، لأن الظروف السياسية في العراق اليوم، وحتى في الداخل التركي أصبحت معقدة جداً، فالأولوية هي للمصالح الوطنية التركية، وهو ما يجعلها أمام تحديات كبيرة لإمكانية نجاحه خلال الفترة المقبلة، وعليه فإن أي جديد قد يقدمه أردوغان، ستكون له نتائج حاسمة على مستقبل الدور التركي في العراق.

قد تكون زيارة أردوغان المرتقبة للعراق، البداية العملية لتوجهه المرتقب حيال العراق، إلاّ أن ذلك لا يمنع من القول بأن السؤال الأهم الذي ينتظر تركيا في العراق هو أن محاولات إعادة تشكيل هيكل السياسة الخارجية، وتحديث آلياتها، هل سيجعلها متأخرة عن التفاعلات المهمة التي

قد يشهدها العراق في المرحلة المقبلة، مما يجعل السياسة التركية تسير باتجاه متأخر وغير فاعل، أم ستعطي العراق أولوية قصوى ينتج عنها سياسة خارجية فاعلة ومتوازنة ومؤثرة؟.

إن الإجابة على هذه التساؤلات قد تتحدد بطبيعة المكانة التي يحتلها العراق في المدرك الاستراتيجي التركي، ومدى أهميته وتأثيره، إلى جانب طبيعة الدور الذي يتوقع أن يمارسه أردوغان في العراق، والأهم من ذلك في مدى قدرة تركيا على التفاعل مع القضايا من جهة، وتجاوز المتغيرات المؤثرة المحيطة بدورها في العراق من جهة أخرى.